الفصل السادس

التقديم والتأخير

يرتبط النظام اللغوى لأية لغة إلى حد كبير بالتكوين النفسي والبيئي والثقافي للأفراد متكلمى هذه اللغة، بحيث يصبح هذا النظام - في النهاية - انعكاسًا لطبيعة المجتمع ومزاجه وتركيباته النفسية.

والجملة في العربية تخضع لنظام معين في ترتيب مفرداتها. ويقسم النحاة الجملة إلى مسند ومسند إليه ومتعلقات الإسناد.

وإذا كان للجملة في العربية نظام مثالى في ترتيبها، فإن هذا النظام ليس مقدسًا لا يجوز المساس به، فثمة تغيرات تطرأ على طريقة الترتيب بحيث يُقدم عنصر أو يؤخر آخر، والتقديم والتأخير في الجملة العربية من المباحث المهمة التي حظيت بعناية كبيرة من قِبَل النحاة والبلاغيين، وإن غَلَبَ الذوق الجمالى القائم على التحليل اللغوى على تحليلات البلاغيين لها.

ويقسم عبد القاهر الجرجاني التقديم قسمين:

الأول: تقديم يقال إنه على نية التأخير، ويَعْنِى به كل ما يتقدم ويظل على حكمه الذي عليه، كما في الخبر إذا قُدم على المبتدأ، والمفعول عندما يتقدّم على الفاعل.

والآخر: تقديم يُراد به نقل الشيء عن حكمٍ إلى حكم وجعله في بابٍ غير بابه، فإذا قُلب التركيب «ضربت زيدًا» إلى «زيد ضربته» صار «زيد» مرفوعًا بالابتداء بعد أن كان مفعولًا به[1].

وعلى الرغم من أن في التقديم والتأخير دوافع وأهدافًا يعول عليها المنشيء سواء أقصد أم لم يقصد، فهما لا يصلحان في كل موقف، فقد يؤديان إلى غموض المعنى وثقل التركيب والتكلف، ولذا نرى البلاغيين - وهم يتحدثون عن شروط فصاحة الكلام - يرفضون التقديم الذي يؤدى إلى اختلال نَظْم الكلام وهو ما يطلقون عليه لفظ

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٢.

«التعقد»، أى «ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به»[1]، والكتب البلاغية تمتلئ بالشواهد المتوارثة الدالة على هذا التعقيد اللفظى.

وقد ورد التقديم والتأخير في ديوان البارودى في خمسة وتسعمائة موضع، وهذا يدل على مدى ثراء هذا الجانب عنده.

وأبرز الظواهر التي كانت شائعة عند تقديم الجار والمجرور والمتعلق بمحذوف يقع خبرًا على المبتدأ النكرة، أو تقديم الجار والمجرور المتعلق بالأفعال على فاعلها، وكذلك تقديم المفعول به على فاعله، أو تقدمه في صدر جملة. وثمة ظواهر لم تكن تتعدى البيت الواحد عنده، مثل تقديم الحال على صاحب الحال.

وينقسم البحث في ظواهر التقديم والتأخير في شعر البارودى إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: السمات العامة، مثل تقديم المفعول به، وتقديم الحال، وتقديم المفعول لأجله، وتقديم الجار والمجرور...

ثانيًا: السمات الخاصة، مثل تأخير الفاعل ووقوعه مقطعًا للبيت، وتأخير الفاعل ووقوعه بين المفعول الأول والمفعول به الثاني، وتأخير المفعول به ووقوعه مقطعًا للبيت.

ثالثًا: التقديم في التركيب الشرطي، ويتمثل في تقديم الاسم على الفعل.

- **أولًا: السمات العامة المتعلقة بالتقديم والتأخير:**

١- تقديم المفعول به:

وقد ورد ذلك في مائة واثنين وأربعين موضعًا.

وتتعدد صور ظاهرة تقديم المفعول به، وتتعدد تبعًا لذلك الأهداف والغايات. ويمكن تقسيم تلك الظاهرة إلى الصور التالية:

الصورة الأولى: المفعول به المقدم أعظم شأنًا من الفاعل، كما في قوله:

فَإِنْ يَكُ فَارَقْتُ الرِّضَا فَلَبعدَ مَا

صَحِبْتُ زَمَانًا يُغْضِبُ الحُرَّ عَبْدُهُ[2]

فالمفعول به المقدم «الحر» والفاعل «عبد».

---

(١) الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٥، وانظر: ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص١٠١.

(٢) الديوان، جـ١، ص١٩٢.

الصورة الثانية: المفعول به المقدم أشمل من الفاعل، كقوله:

فَبِتُّ أَقِيهِ السّوء إذْ كَانَ صَاحِبِى ... وأَحْرَسُهُ، إنّى لَدَى الخَوْفِ حَارِسُ

لَدَى مَوْطِنٍ لاَ يَصْحَبُ المَرْء قَلْبُهُ ... حذارًا، ولاَ تَسْرِى إليْهِ الهواجِسُ[1]

فالفاعل «قلب» جزء من المفعول «المرء»، أى أن المفعول «كل» والفاعل «جزء».

الصورة الثالثة: المفعول به واقعًا في أسلوب استثناء، كقوله:

لاَ يُدْرِكُ المَجْدَ إلاّ مَنْ إذَا هَتَفَتْ ... بِهِ الحَمِيّةُ هَزَّ الرُّمْحَ وَانْتَصَبَا[2]

فالتركيب السابق - وهو استثناء مفرّغ - يقتضى تأخير الفاعل وهو «مَنْ».

الصورة الرابعة: المفعول به واقعًا في أسلوب استفهام، كما في قوله:

وَكَيْفَ بِعِى سِرُّ الهَوَى غَيْرُ أهْلِهِ ... وَيَعْرِفُ مَعْنَى الشَّوْقِ مَنْ لَمْ يُفَارِقِ[3]

فتقديم المفعولين في شطرَي البيت «سر الهوى» و«معنى الشوق» يُحدث نوعًا من التشويق، ولو قُلب التركيب إلى صورته المثالية هكذا:

وَكَيْفَ بِعِى أهْلَ الهَوَى سِرُّهُ ... وَيَعْرِفُ مَنْ لَمْ يُفَارِقْ مَعْنَى الشَّوْقِ

لانتفت منه الإثارة الذهنية التي بالتركيب الأول.

الصورة الخامسة: المفعول به المقدَّم اسم موصول، كقوله:

فَأىُّ عَارٍ بالحُمُولِ عَلَى ... مَا شَادَه السيف مِنْ فَخْرٍ عَلَى زُحَل[4]

وتقديم المفعول به «أى»، وهو اسمٌ موصول جاء على هيئة استفهام توبيخى، يأتى بهدف المبالغة في وصف العار.

الصورة السادسة: تقديم المفعول به بحيث يؤدى قلب التركيب إلى صورته المثالية إلى إحداث خلل به، كما في قوله:

فَقَدْ شَبَّ الهَوَى مَنْ رَامَ نُصْحِى ... وَأغْرَى فِى المَحَبَّةِ مَنْ نَهَانِي[5]

ويتضح الخلل عند تحويل التركيب المتمثل في صدر البيت إلى صورته المثالية كما يلى:

---

(١) الديوان، جـ٢، ص١٦٩.

(٢) الديوان، جـ١، ص١١٦.

(٣) الديوان، جـ٢، ص٣٥٩.

(٤) الديوان، جـ٣، ص٢٤.

(٥) الديوان، جـ٤، ص٥٧.

«من رام نصحى فقد شب الهوى»، ويعود هذا الخلل - أساسًا - إلى الانفصال الحادث بين التركيبين: «من رام نصحى»، و«فقد شب الهوى» - على الرغم من وجود الفاء الرابطة - بحيث قد يفهم أن «الهوى» فاعل «شَبَّ»، وهو في الأصل مفعول به، أما الفاعل فهو «مَنْ».

الصورة السابعة: تقديم المفعول به في صدر البيت وعجُزه معًا، مما يؤدى إلى التجانس اللفظى بين شطرى البيت والمزاوجة بينهما، ويخلق - في النهاية - نوعًا من الموسيقى قائمة على التماثل في التركيب بين الصدر والعجُز، كما في قوله:

يُمَـزِّقُ أستـارَ النَّـواظِـرِ بَـرْقُـهُ وَيَقْـرَعُ أضـدَافَ المَسَامِعِ رَعْدُهُ[1]

فثمة تقابل بين «أستار»، و«أصداف» من حيث دلالة كل منهما على الإخفاء، وتقابل ضدى بين «النواظر»، و«المسامع»، ثم تقابل آخر بين «برق»، و«رعد». كذلك فصدر البيت وعجُزه يتماثلان تمامًا في التركيب - بإغفال واو العطف في أول العجُز - إذْ يتكون كل منهما من:

فعل مضارع + مفعول به + مضاف إليه + فاعل + مضاف إليه.

الصورة الثامنة: تقديم المفعولين، كما في قوله:

وَلِي مِنْ بَـدِيـعِ الشِّـعْـرِ مَا لَوْ تَلَوتُهُ عَـلَى جَبَـلٍ لاَنْهَـالَ فِي الدَّوِّ رَبْدُهُ

إذَا مَـا تَـلاَهُ مُنْـشِـدٌ فِي مَقَامَهِ كَفَى القَوْمَ تَرْجِيعَ الغِنَاءِ نَشِيدُهُ[2]

وتتضاءل - هنا - أهمية الفاعل «نشيد» إلى حد أنه يمكن حذفه دون أن يتأثر المعنى، إذْ إن الكلام قَدْ تَمَّ بلفظة «الغناء» ثم زاد «نشيده» اضطرارًا لمراعاة القافية.

٢- تقديم الحال على صاحبها:

ويجىء في موضع واحد هو:

وَأَصْبَحْتُ مَغْلُوبَ الرَّشَادِ، وَقَلَّمَا يَعُودُ رَشِيدًا صَالِحَ العَقْلِ مَنْ يَغْوَى[3]

(١) الديوان، جـ١، ص١٩٥.
(٢) الديوان، جـ١، ص٢٣٢.
(٣) الديوان، جـ٤، ص١٩٣.

والتقديم - هنا - يعنى التأكيد على المعنى الذي يبرزه الحال، ودليل ذلك أن الحال قد تعدد، وأن الحالين «رشيدا» و«صالح العقل» يستلزم وجود أحدهما وجود الآخر لفظًا أوتقديرًا.

٣- تقديم المفعول لأجله على الفاعل:

ويقع ذلك في موضعين.

يقول في أحدهما:

وَسُسْتُ الوَرَى بالعَدْلِ حَتَّى تَشَوُّقًا

إلَيْكَ الْتَوَى جِيدُ الدُّهُورِ القَدَائِمِ[1]

فثمة تركيز على علة التواء الدهور بالمفعول لأجله «تشوقًا»، وعلى أن هذا الشوق لم يكن إلا «إليك». ويلاحظ غرابة ورود المفعول لأجله بعد «حَتَّى».

ويقول في الموضع الثاني:

يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ حَتَّى يَسْتَوِى كَرَمًا لَدَيْهِ ذُو العَمَلِ المَبْرُورِ والجَانِي[2]

وفيه تأكيد على صفة الكرم باستخدام المفعول لأجله «كرمًا»، وعلى مصدر هذا الكرم «لديه».

ويعنى هذا أن تقديم المفعول لأجله يبرز سبب الحدث، وأن الجار والمجرور والظرف والمضاف إليه، يأتيان لإظهار مصدر الفعل أو منبعه أو اتجاهه. والمعنى: أن تساوى ذى العمل المبرور والجاني عند الله يعود إلى ما يتصف به الله من كرم.

٤- تقديم المفعول به والمفعول لأجله على الفاعل:

وتأتي هذه الظاهرة في موضع واحد هو:

فَأَهْمَلَ الأَرْضَ جَرْيًا الظُّلْمِ حَارِثُهَا وَاسْتَرْجَعَ المَالَ خَوْفَ العَدْمِ تَاجِرُهُ[3]

فالمفعول به: «الأرض» - في صدر البيت - و«المال» في عجُزه، والمفعول لأجله: «جرا الظلم» - في الصدر و«خوف العدم» في العجز. وتقديم المفعول به والمفعول لأجله في

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٣٠٧.

(٢) الديوان، جـ٤، ص١٤٩.

(٣) الديوان، جـ٢، ص١٤٣.

شطرَي البيت أدى إلى التماثل التركيبي التام، إذ إن كل شطر يتكون من:

فعل ماض + مفعول به + مفعول لأجله + فاعل + مضاف إليه.

كما أن تقديم المفعول به والمفعول لأجله يدل على أهميتهما، فالتركيز - من حيث المعنى - على «إهمال الأرض» و«استرجاع المال»، وهما المعنيان اللذان يبرزهما الفعل والمفعول به في صدر البيت وعجُزه، ثم بيان السبب في كلتا الحالين بالمفعول لأجله في كلٍّ.

٥- تقديم المفعول به والتمييز على الفاعل:

ويقع ذلك في موضع واحد هو:

أرِجُ النَّبَاتِ، كَأنَّما غَمَرَ الثُّرَى طِيبًا مُرُورُ «الخِضْرِ» بَيْنَ آكَامِهِ[1]

وتقدم كل من المفعول به «الثرى» والتمييز «طيبًا» يثير الذهن للتفكير في الفاعل.

والفارق بين هذه الظاهرة وسابقتها يكمن في أن الفاعل في الأولى ليس ذا أهمية كبيرة، فالمعنى المراد بيانه فيها: أن الأرض أهملت بسبب الظلم، وأن المال استُرجع خوف الفقر، أما في هذه الظاهرة فالفاعل يضيف الجديد إلى المعنى، فالذي غمر الثرى طيبًا مرورُ الخضر، فالطيب - إذن - مبارك، أى أن ذِكْرَ الفاعل - هنا - يكسب المعنى مزيةً.

٦- تقديم المفعول به والجار والمجرور:

وترد هذه الظاهرة في أربعين موضعًا.

وتتسم هذه الظاهرة بسمتين أساسيتين:

الأولى: أن تقديم المفعول به يبرز أهميته في السياق.

الثانية: أن مجيء الجار والمجرور متقدمًا إنما هو للتفصيل والتوضيح وإزالة الإبهام.

وهاتان السمتان تتضحان في البيت التالى:

وَلَـوْ أنَّ أسْبَابَ السِّيَادَةِ بالغِنَى لَكَاثَرَ رَبُّ الفَضْلِ بالمَالِ تاجِرُ[2]

فـ«رب الفضل» - وهو المفعول به - أعظم مكانةً من التاجر - وهو الفاعل. ويقوّى هذا الاستنتاج - هنا - تنكير كلمة «تاجر» الذي أفاد التحقير.

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٥٧١.

(٢) الديوان، جـ٢، ص٩٨.

أما الجار والمجرور «بالمال»، وهو مفعول به محول إلى جار ومجرور، فهو يحدِّدُ ويفصِّل، وبحذفهما يغمض المعنى، فهل كاثر التاجرُ ربٌّ الفضل بالولد أم بالعلم أم بالعافية.....؟

ويبرز الحكمين السابقين البيتُ التالي:

قَذَفَتْهَا إلى البُطُونِ ظُهُورٌ وَحَوَتْهَا بَعْدَ الظُّهُورِ بُطُونٌ[1]

ففي صدر البيت - وهو ما يبرز تلك الظاهرة - يقصد بالضمير في «قذفتها» - وهو المفعول به - النُطفة وهي أول مراحل خلق الإنسان وأهمها.

كما أن الجار والمجرور - إلى البطون - يحدد موضع القذف:

إلى الأرض.. إلى الجبال.. إلى أسفل.. إلى أعلى..

وفي إطار هذه الظاهرة التي قِوامها أربعون بيتًا نجد أن هناك عشرين موضعًا كان المفعول فيها ضميراً متصلًا - كما في البيت السابق - منها اثنا عشر موضعًا كان المفعول به الضمير ياء المتكلم، وهذا يؤكد أن المفعول به - الاسم الظاهر أو الضمير المتصل - يتقدم لأهميته، على أن المفعول به إذا كان ضميراً متصلًا والفاعل اسمًا ظاهرًا وجب تأخير الفاعل.

٧- تقديم المفعول به والحال والجار والمجرور على الفاعل:

ويَرِدُ في موضع واحد وهو:

فَلَيْسَ يَجْنِي ثِمَارَ الفَوْزِ يَانِعَةً مِن جَنَّةِ العِلْمِ إلاَّ صَادِقُ الهِمَمِ[2]

والبيت - بوصفه أسلوب قصر - يقصر جنى ثمار الفوز وهي يانعة على صادق الهمم. ومغزى التقديم - هنا - أنه يؤكد على الجنى ويبين حاله وطبيعته، لذلك كان تقديم المفعول به «ثمار»، والحال «يانعة»، والجار والمجرور «من جنة...»، كما أن تأخير الفاعل يُحدث نوعًا من التشويق.

٨- تقديم المفعول به والظرف والمضاف إليه على الفاعل:

ويجيء في ستة مواضع.

---

(١) الديوان، ج٤، ص١٢١.

(٢) الديوان، ج٣، ص٢٦٣.

ويتقدم المفعول به - في هذه الظاهرة لأهميته، أما الظرف والمضاف إليه فتقديمهما قد يكون للتأكيد على التحديد الزمني، كما في قوله:

رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ شَيْبِ اللِّمَّةِ الغَزَلُ ... وَرَاحَ بِالجِدِّ مَا يَأتِي بِهِ الهَزَلُ[1]

فثمة تقديم للمفعول به «الصبا»، إذ إن معنى رد الصبا هو الأكثر أهمية من بيان أن مَا رَدَّ هذا الصبا هو الغزل. أما الظرف والمضاف إليه «بعد شيب اللمة» فتقديمهما يشير إلى التركيز على زمن الحدث.

كذلك قد يؤكد الظرف والمضاف إليه على التحديد المكاني، كما في قوله:

وَإِنِّي امْرُؤٌ لاَ أَسْتَكِينُ لِصَوْلَةٍ ... وَإِنْ شَدَّ سَاقِي دُونَ مَسْعَاىَ قَدُّهُ[2]

أي: قبل الوصول إلى مسعاى.

٩- تقديم الظرف والمضاف إليه وجملة الشرط:

ويَرِدُ ذلك في موضع واحد هو:

يُرَافِقُنِي عِنْدَ الخُطُوبِ إِذَا عَرَتْ ... جَوَادٌ، وَسَيْفٌ صَارِمٌ، وَجَفِيرُ[3]

هنا يضاف إلى التحديد الزمني في قوله: «عند الخطوب» التعليق الشرطي باستخدام جملة الشرط «إذا عرت».

والتركيب: يرافقني عند الخطوب إذا عرت.. جواد....

يُكَوِّنُ تركيبًا شرطيًا كاملًا، وبإرجاع عناصره إلى صورتها المثالية، تصبح كما يلي:

إذا عرت الخطوب يرافقني عندها جواد....

أما هذا التشابك بين العناصر فيدل على أن الأهمية تتوزع بينها جميعًا، بحيث لا يتميز عنصر على آخر.

١٠- تقديم الجار والمجرور وجملة الشرط:

ويأتي هذا في موضع واحد هو:

يَكْفِيكَ مِنْهُ إِذَا أَحَسَّ بِنَبْأَةٍ ... شَدٌّ كَمَعْمَعَةِ الأُبَاءِ المُوقَدِ[4]

---

(١) الديوان، جـ٣، ص١٥١.

(٢) الديوان، جـ١، ص١٩٣.

(٣) الديوان، جـ٢، ص٢٠.

(٤) الديوان، جـ١، ص٢٠١.

فالجار والضمير الذي في محل جر «منه» يشيران إلى تحديد المصدر، فالكفاية هى من الحصان، الذي يتحدث عنه، لا من غيره، والشرط يفيد التعليق.

١١- تقديم الظرف والمضاف إليه على الفاعل:

ويجيء ذلك في سبعة وثلاثين موضعًا.

وتقديم الظرف والمضاف إليه في هذه الظاهرة ذو هدف واحد من هدفين:

إما التركيز على الحالة المكانية، وإما التركيز على الحالة الزمانية.

ويوضح الهدف الأول قوله:

وَتَـرَنَّـمَـتْ فَـوْقَ الأَرَاكِ حَمَـامَـةٌ تَصِفُ بِلِسَـانِ صَـبٍّ مُولَعِ[1]

فالظرف والمضاف إليه «فوق الأراك» يبرزان مكان الترنم. ويُظهر الهدفَ الآخر قولهُ:

وَكَيْفَ تَلَذُّ بَعْدَ الشَّيْبِ نَفْسِـي؟ وَفِي اللَّـذَّاتِ إِنْ سَنَحَتْ عَذَابِي[2]

إذْ حَدَّدَ الظرفُ والمضاف إليه «بعد الشيب» زمان الحدث. إذن يمكن القول: إن التقديم في هذه الظاهرة يكون بغرض إظهار البعد المكانى أو البعد الزمانى للحدث.

١٢- تقديم الظرف والحال والجار والمجرور على الفاعل:

ويَردُ ذلك في موضع واحد هو:

وَكَيْفَ يعيشُ الدَّهْرَ خلوًا مِنَ الأسَى سَقِيمٌ يُغَادَى بالهُمُومِ وَيُطْرَقُ[3]

إذ تقدم الظرف «الدهر»، والحال «خلوًا»، والجار والمجرور «من الأسى»، وتقديم هذه العناصر يعنى التركيز على ما بها من معانٍ والتنبيه إليها.

١٣- تقديم الجار والمجرور:

وعدد مواضع هذه الظاهرة خمسمائة واثنان وثلاثون موضعًا.

ويلفت النظر فى ظاهرة تقديم الجار والمجرور الكثرة العددية لتلك الظاهرة وشيوعها عند البارودى، يقول:

زَهَـتِ القُـلُـوبُ بِنُـورِ حِكْمَـتِـهِ وَتَـعَـطَّـرَتْ بِـالـذِّكْـرِ أَفْـوَاهُ[4]

---

(١) الديوان، جـ٢، ص٢٥٣.

(٢) الديوان، جـ١، ص١٠١.

(٣) الديوان، جـ٢، ص٣٥٦.

(٤) الديوان، جـ٤، ص١٨٢.

وتقديم الجار والمجرور - في عجُز البيت - يؤكد أن الذكر هو مصدر العطر، وأن هذه الأفواه لم تتعطر بشيء غيره، خاصة أن المقصود بالذِّكر ذكر الله تعالى.

وقد يشير الجار والمجرور إلى التحديد المكانى، كما في قوله:

وَكَيْفَ أَكْتُمُ أَشْوَاقِي ....

أم كيف أسلو ولى قلبٌ إذا التهبتْ بالأفق لَمْعَةُ بَرْقٍ كَادَ يَلْتَهِبُ؟(١)

وقد يتصل بحرف الجر ضمير، كما في قوله:

هَيْفَاء مَالَ بِهَا النَّعِيمُ، فَخَطْوُهَا دُونَ القَطَاةِ، وَنَطْقُهَا إِبمَاءُ(٢)

وقد يكون هذا الضمير ضمير المتكلم، كما في قوله:

يَارَبُّ! طَالَ بِى شَوْقِى إلى وَطَنِى فاحْلُل وِثَاقِى، واخْفِنِى بِأشبَاهِى(٣)

فالجار والمجرور - في الموضعين - مؤكد للمعنى.

وقد يتعدد الجار والمجرور للتأكيد والتحديد والتفصيل، كما في قوله:

فَحَلَّ هَذا، وَخُذْ فِي وَصْفِ غَانِيَةٍ سَرَتْ بِحُلْوَانَ فِي قَلْبِى سَوَارِيهَا(٤)

١٤- تقديم الجار والمجرور والمفعول به:

وعددٌ مواضع هذه الظاهرة عشرة مواضع.

ويسترعى الانتباه في هذه الظاهرة أربعة أمور:

الأول: أنه لم يَرِدْ اسمٌ مجرور بعد حرف الجر في كل هذه المواضع، بل ورد ضمير مبنى في محل جر.

والثاني: أن خمسة ضمائر من العشرة هي ضمير المتكلم الذي يعود إلى الشاعر.

والثالث: أن استخدام ضمير المتكلم في هذه المواضع الخمسة لم يأت إلا في الفخر.

والرابع: أنه لم يُستخدم في المواضع التي كان فيها الضمير للمتكلم إلا الفعل «أبى» الذي يلائم تمامًا غرض الفخر. يقول:

وَكَمْ مِنْ يَدٍ للهِ عِنْدِى وَنِعْمَةٍ يَعَضُّ عَلَيْهَا كَفُّهُ الحَاسِدُ الوَغْدُ(٥)

---

(١) الديوان، جـ١، ص١١١.

(٢) الديوان، جـ١، ص٦٦.

(٣) الديوان، جـ٤، ص١٨٠.

(٤) الديوان، جـ٤، ص١٦٦.

(٥) الديوان، جـ١، ص٢١٣.

ويقول:

مَاتُوا كِرَامًا، وَأَبْقَوْا لِلْعُلاَ أَثَرًا نَالَتْ بِهِ شَرَفَ الحَرْثِيَةِ الأُمَمُ[1]

ففي هذين الموضعين نلاحظ أن الجار والمجرور يأتي لتأكيد المعنى وتقويته، كما أن المفعول به يتقدم لأهميته.

أما المواضع التي كان فيها الضمير المتصل بحرف الجر للمتكلم فهي:

أَبَتْ لِيَ حَمْلَ الضَّيْمِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ وَقَلْبٌ إِذَا سِيمَ الأَذَى شَبَّ وَقْدَهُ[2]

وقوله:

وَإِنِّي امْرُؤٌ تَأْبَى لِيَ الضَّيْمَ صَوْلَةٌ مَوَاقِعُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حُمْرُ[3]

والبيت التالي:

تَأَبَّا لِيَ الضَّيْمَ نَفْسٌ حُرَّةٌ وَيَدٌ أَطَاعَهَا المِرْهَفَانِ السَّيْفُ والقَلَمُ[4]

وهذا البيت:

يَأْبَى لِيَ الغَيَّ قَلْبٌ لاَ يُمِيلُ بِهِ عَنْ شِرْعَةِ المَجْدِ سِحْرُ الأَعْيُنِ النُّجُلِ[5]

وهذا - أيضًا:

فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي، إِنَّنِي رَجُلٌ يَأْبَى لِيَ الغَدْرَ أَخْوَالٌ وَأَعْمَامُ[6]

ففي هذه المواضع الخمسة نلاحظ أن المفعول به المقدم هو «الضيم» في الأبيات الثلاثة الأولى، و«الغي» في البيت الرابع، و«الغدر» في البيت الخامس، وأن الفاعل على الترتيب: «نفس»، و«صولة»، و«نفس»، و«قلب»، و«أخوال». فالمفعول به المقدم مما تعافه النفوس، والفاعل ذو شأن.

إذن: يمكن الجزم بأنه إذا كان تقديم الجار والمجرور - هنا - للتأكيد فإن تقديم المفعول به للتحقير.

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٥٤٠.

(٢) الديوان، جـ١، ص١٩٣.

(٣) الديوان، جـ٢، ص١٤٩.

(٤) الديوان، جـ٣، ص٥٣٦.

(٥) الديوان، جـ٣، ص٦.

(٦) الديوان، جـ٣، ص٤٦٩.

١٥- تقديم الجار والمجرور والمفعول لأجله على الفاعل:

ويأتى في موضع واحد هو:

رَجَعَ الخِدِيوُ لِمِصْرِهِ ... وَأَتَتْ طَلائِعُ نَصْرِهِ

وَتَهَلَّلَتْ بِقُدُومِهِ ... فَرَحاً أَسِرَّةُ عَصْرِهِ[١]

فالمراد إثبات قدوم الخديو والتأكيد على معنى الفرح بعودته، والمعنيان يبرزهما الجار والمجرور والمفعول لأجله.

١٦- تقديم الجار والمجرور في الجملة المبنية للمجهول:

ويرد في ستة مواضع.

ويهدف تقديم الجار والمجرور في هذه الظاهرة إلى التنبيه إلى المعنى الذي يبرزه هذا التقديم، ويتضح ذلك في قوله:

وَهَلْ فِي التَّحَلِّي بِالكُنَى مِنْ فَضِيلَةٍ ... إِذَا لَمْ تُزَيَّنْ بِالفَعَالِ الطَّبَائِعُ؟[٢]

فهو ينبه إلى أن التزين لا يكون إلا بالفعال الحميدة.

ويقول عن الخمر:

تُزَفُّ بِأَلْحَانِ المَثَانِي كُئُوسُهَا ... كَمَا زُفَّتِ الحَسْنَاءُ بِالطَّبْلِ وَالزَّمْرِ[٣]

يؤكد على أن زف الكئوس إلى شاربى الخمر لا يتم إلا بألحان المثانى.

ثانيًا: السمات الخاصة المتعلقة بالتقديم والتأخير:

يتسم ديوان البارودى بسمات خاصة في التقديم والتأخير، تأتى في معظمها تحقيقًا لغايات جمالية، وقد تكون ذات ارتباط بالمعنى، وقد تجيء للحفاظ على قافية البيت، أو للتشويق، أو الاختصاص. وقد يؤدى هذا التقديم والتأخير إلى خلل في التركيب ناتج عن سوء ترتيب لعناصر البيت. ومن أبرز تلك السمات:

١- تأخير الفاعل ووقوعه مقطعًا للبيت:

يقول:

تَكَأْفَنَ تِمْثَالاً مِنَ الحُسْنِ رَائِعًا ... يُجَنُّ جُنُونًا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ العَقْلُ[٤]

---

(١) الديوان، جـ٢، ص١٢٣.

(٢) الديوان، جـ٢، ص٢٢١.

(٣) الديوان، جـ٢، ص١٢٩.

(٤) الديوان، جـ٣، ص٤٧.

تأخر الفاعل «العقل» وتقدم المفعول المطلق «جنونا»، والظرف والمضاف إليه «عند رؤيته»، ووقع الفاعل مقطعًا للبيت.

وهدف التأخير - هنا - التركيز على معانى العناصر التي تقدمت، والحفاظ على القافية. وربما يكون تأخير الفاعل «العقل» دلالة على تأخره في العمل عند الجنون، أى أن ثمة علاقة بين تأخر الفاعل - في السياق - والتأخير الفعلى عند الجنون.

٢- تاخير الفاعل ووقوعه بين المفعول الأول والمفعول الثاني:

يقول:

فَألْبَستْ ياسمِينَ الخَدِّ خَجْلَتَهُ وَرْدًا جَنِيًا. جَنَاهُ رَائِدُ المُقَلِ[1]

أى: فألبست خجلتُهُ ياسمينَ الخد وردًا.

وتقدُّم المفعول به الأول «ياسمين الخد» لأنه أحق بالانتباه.

٣- تاخير المفعول به في الجملة الطلبية ووقوعه مقطعًا للبيت:

يقول:

أيُّهَا الظَّالِمُ! هَبْ لِي مَرْةً مِنْكَ العَدَالَةْ[2]

وتأخير المفعول به «العدالة» يأتى بغرض المحافظة على القافية. وربما يكون تأخير «العدالة» في السياق مرتبطًا بتأخير تحققها عند هذا الظالم، أى أن الواقع اللغوى يشير إلى الواقع الحياتى.

٤- تقديم المفعول به على اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله:

يقول:

كَفَلَ الشَّقَاءُ لِمَنْ أنَاخَ بِرَبْعِهِ وَكَفَى ابْنَ آدَمَ بِالمَصَائِبِ كَافِلا[3]

أى: «وكفى بالمصائب كافلًا ابن آدم».

وتقديم المفعول به «ابن» على اسم الفاعل الذي يعمل عمل فعله «كافلًا» الذي يقع مقطعًا للبيت أدى إلى سوء في الترتيب.

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٢٢٧.

(٢) الديوان، جـ٣، ص١٩٤.

(٣) الديوان، ج٣ ص٢١٠.

٥- تقديم الجار والمجرور في اسلوب القصر:

ويأتى ذلك في ثمانية مواضع:

يقول:

إلَيكِ اسْتَثَرْتُ العَيْنَ مَحْلُولَةَ العُرَا ... وَفيكِ رَعَيْتُ النَّجْمَ رَعْىَ السَّوَائِمِ[١]

وطريقة القصر في شطرى البيت تقديم الجار والمجرور، أى تقديم ما حقه التأخير في قوليه: «إليك استثرت»، «فيك رعيت»، مما يؤدى إلى القصر أو الاختصاص، أى من أجل حبيبته وحدها استثار العين... وبسببها فقط رعى النجم رعى السوائم.

ويقول:

إلى اللهِ أشْكُو نَظْرَةً ما تَجَاوَزَتْ ... حِمَى العَيْنِ حَتَّى أوْرَدَتْنِى المَهَاوِيَا[٢]

فتقديم الجار والمجرور «إلى الله» يفيد قصر بث الشكوى على الله، واختصاص الله وحده بالشكوى دون أحد سواه.

٦- تقديم الخبر في الجملة الاسمية:

يقول عن البحر:

قَلِيلٌ عَلَى عَهْدِ الإخَاءِ ثَبَاتُهُ ... فَاسْفَلُهُ عَالٍ، وَعَالِيهِ سَافِلُ[٣]

أى «ثباته على عهد الإخاء قليل». وتقديم الخبر «قليل» يعنى التنبيه إلى ما يحمله من معانٍ، فهو يريد التنبيه إلى قلة ثبات البحر، لا إلى وجود الثبات، ولو عكس وقال: «ثباته على عهد الإخاء قليل» لكان التركيز على وجود الثبات، لا على قلته.

٧- تاخير الخبر والإتيان به بعد اربعة ابيات:

يقول:

فَمَا رَوْضَةٌ غَنَّاءُ بَاكَرَهَا الحَيَا ... بِأوْطَفَ سَاجٍ، أشْعَلَ البَرْقَ سَاجِمُ[٤]

يَضُوعُ بِهَا نَشْرُ العَبِيرِ، فَتَقْتَدِى ... تَقَاسَمَهُ فِينَا أكُفُّ النَّوَاسِمِ

إذَا الشَّمْسُ لاَحَتْ مِنْ خِلاَلِ ظِلاَلِهَا ... عَلَى الأرْضِ، لاَحَتْ مِثْلَ دُورِ الدَّرَاهِمِ

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٢٩٠.

(٢) الديوان، جـ٤، ص٢٢٠.

(٣) الديوان، جـ٣، ص١٨٧.

(٤) الديوان، جـ٣، ص٣١٠.

بِقِيلَ بِهَا سِرْبُ المَهَا وَهْوَ آمِنٌ ... فَمِنْ أَزْبَدَ سَاجٍ، وَأَحْوَرَ بَاغِمِ
بِأَلْطَفَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ ... إِذَا العُودُ ضَمَّتْهُ أَكُفُّ العَوَاجِمِ[1]

والجملة هي «فما روضة.. بألطف».

و«ما» نافيه، والباء في «بألطف» زائدة.

وتأخير الخبر بهذه الصورة، ووقوع هذه التراكيب المتعددة بين المبتدأ وخبره ينسيان المرء أن ثمة خبراً ينبغي انتظاره.

٨- **تأخير مقول القول والإتيان به بعد خمسة ابيات:**

يقول:

أَقُولُ لِرَكْبٍ مُدْلِجِينَ، هَفَتْ بِهِمْ ... رِيَاحُ الكَرَى، مِيلِ الطُّلَى وَالعَمَائِمِ[2]
تَجِدُّ بِهِمْ كُومُ المَهَارِي لَوَاغِبًا ... عَلَى مَا تَرَاهُ، دَامِيَاتِ المَنَاسِمِ
تُصِيخُ إِلَى رَجْعِ الحُدَاءِ، كَأَنَّهَا ... تَحِنُّ إِلَى (إِلْفٍ) قَدِيمٍ مُصَارِمِ
وَيَلْحَقُهَا مِنْ رَوْعَةِ السَّوْطِ جِنَّةٌ ... فَتَمْرُقُ شُغْلًا مِنْ فِجَاجٍ المَخَارِمِ
لَهُنَّ إِلَى الحَادِي التِفَاتَةٌ وَامِقٍ ... فَمِنْ رَازِحٍ مُغْمًى، وَآخَرَ رَازِمِ
أَلَا أَيُّهَا الرَّكْبُ الَّذِي خَامَرَ السُّرَى ... بِكُلِّ فَتًى لِلْمَيْنِ أَغْبَرَ سَاهِمِ[3]
قِفَا بِي قَلِيلاً، وَانْظُرَا بِي، أَشْتَفِي ... بِلَثْمِ الحَصَى بَيْنَ اللَّوَى فَالنُّعَائِمِ

فقوله: «ألا أيها الركب... قفا بي...» هو مقول القول في البيت الأول:

وهذا التأخير يجعل المتلقي يستغرق في الأبيات والتراكيب الواردة بين القول ومقوله، وينسى أن هناك مقولًا للقول.

وهذه الظاهرة - وكذا سابقتها - تدل على حضور ذهن الشاعر وتيقظه، فعلى الرغم من كثرة التراكيب المعترضة، سواء بين المبتدأ وخبره أم بين القول ومقوله، إلا أنه كان منتبهًا للبنية النحوية في السياق الشعري.

٩- **تقديم المتعلقات وتاخيرها يؤدي إلى ثقل في التركيب:**

يقول:

(١) الديوان، جـ٣، ص٣١٢.
(٢) الديوان، جـ٣ ص٢٩١.
(٣) الديوان، جـ٣ ص٢٩٤.

صَوارخٌ، لاَ يَهْدَأنْ إلاَّ مَعَ الضُّحَا مِن الشرِّ، فِي بيتٍ مِنَ الخَيرِ ممحَالِ[1]

فـ«من الشر» متعلق بـ«صوارخ»، و«في بيت» متعلق بها - أيضًا. و«من الخير» متعلق بـ«بيت»، و«ممحال» نعت له. وترتيب البيت: «صوارخ من الشر، في بيت ممحال من الخير، لا يهدأن إلا مع الضحايا»[2].

١٠- التقديم والتاخير في التعبير الجاهز:

يقول:

فَهُوَ بِهَا مُجْتَمِعٌ شَمْلُهُ إنْ أصْدَرَ القَوْلَ بِهَا أوْرَدَا[3]

فحدث قلب في التعبير الجاهز «إذا أورد أمر أصدره»، أى إن بدأ أمرًا أتمه[4].

ثالثًا: التقديم في التركيب الشرطي:

تقديم الاسم على الفعل:

تعد قضية تقديم الاسم على الفعل في التركيب الشرطي من القضايا الجديرة بالبحث والدراسة، ذلك أن ثمة خلافًا حول ولاية الفعل أداة الشرط، فمنهم من يرى «أن حروف الجزاء يقبح أن تتقدم الأسماء فيها الأفعال»[5]، لأن هذه الحروف قد يفارقها الجزاء فتتحول إلى أدوات استفهام أو إلى أسماء موصولة.

وتستثنى من أدوات الشرط «إنْ»، لأنها أمّ أدوات الشرط، ولأنه لا يفارقها الجزاء خلافًا لبقية أخواتها، تمامًا كما هو الحال فى حروف الاستفهام، إذ إنه يقبح أن يليها الاسم إذا ورد الفعل بعده فيما عدا همزة الاستفهام؛ لأنها الأصل فيه[6].

ويرى البعض أن هناك فعلًا محذوفًا يفسره الفعل الظاهر بعد الفاعل. ونرى أنه ليس ثمة حذف، وإنما تقديم للاسم على الفعل، ونقول ذلك محتكمين إلى سياق حتى لا نلجأ إلى التأويلات والتفسيرات التى قد يبدو فيها شيء من التكلف.

---

(١) الديوان، جـ٣، ص٢٥٠.

(٢) انظر شرح البيت بالديوان جـ٣، ص٢٥٠.

(٣) الديوان جـ١، ص٢٧٥.

(٤) انظر شرح البيت بالديوان، جـ١، ص٢٧٥.

٥١) انظر، سيبويه، الكتاب، جـ٣ ص١١٢.

(٦) انظر، المبرد، المقتضب، جـ٢ص٧٢.

وتقديم الاسم على الفعل في التركيب الشرطى - كما وَرَدَ عند البارودى - ذو وجهين:

الوجه الأول: تقديم الاسم على الفعل فى جملة الشرط المتصدرة للتركيب الشرطى.

الوجه الثانى: تقديم الاسم على الفعل فى جملة الشرط المسبوقة بجملة الجواب.

الوجه الأول للظاهرة: وَرَدَ فى أربعة وأربعين موضعًا فى ثلاث الصور التالية:

الصورة الأولى: وتقع فى أربعة عشر موضعًا، وهى كالآتى:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مبدوءة بفعل ماض).

الصورة الثانية: وترد في موضع واحد، وهي كما يلي:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مبدوءة بفعل مضارع).

الصورة الثالثة: وقوامها ثمانية وعشرون موضعًا، وتركيبها:

أداة الشرط + جملة الشرط (مبدوءة باسم + فعل ماض) + جملة الجواب (مقرونة بالفاء).

وتأتى اسمية، وطلبية، ومبدوءة بـ«ما» النافية، ولا «النافية»، وليس.

ويمثل الصورة الأولى البيت التالى:

إذَا المَرءُ لَمْ يَنْهَضْ لِمَا فيه مَجْدُهُ ... قَضَى وَهْوَ كَلٌّ فى خَلُورِ العَوَائِقِ[1]

وتتضح الصورة الثانية في قوله:

إنَّا إذَا مَا الحَرْبُ شَبَّ سَعِيرُهَا ... نَحْمِى النُّزِيلَ، وَنَمْنَعُ الجِيرَانَا[2]

أما الصورة الثالثة فمثالها البيت:

إذا القَلْبُ لَمْ يَنْصُرْكَ فى كُلِّ مَوْطِنٍ ... فَمَا السَّيْفُ إلاَّ آلَةٌ حَمْلُهَا إِدُّ[3]

ونلاحظ في كل الصور السابقة تقدّم الاسم على الفعل، وقد ورد هذا في أربعة وأربعين موضعًا، وتنوعت جمل الجواب، فهى فعلية فعلها ماض، وفعلية فعلها مضارع، ومقرونة بالفاء.

---

(١) الديوان، جـ٢، ص٣٦١.

(٢) الديوان، جـ٤، ص٨٧.

(٣) الديوان، جـ١، ص٢١٧.

وتقديم الاسم على الفعل يعنى أن الاسم المقدم ذو أهمية خاصة عند الشاعر حتى إنه يقدمه على الفعل، فالاسم وما يرتبط به من معانٍ أكثر أهمية من الفعل. كما أن البدء بالاسم يثير الذهن ويلفت الانتباه.

وتتضح لنا الفكرة السابقة إذا قارنّا بين التركيبين التاليين:

- إذا القلب.... لم ينصرك.
- إذا لم ينصرك.... القلب.

فعندما قُلب التركيب فتأخر الاسم وتقدم الفعل صار المعنى خاليًا من التأكيد، وأصبح معنًى عاديًا يمضى دون أن يترك أثرًا في نفس متلقيه. ويتضح الفرق بين المعنيين إذا توقف الكلامُ عند الاسم في الجملة الأولى، وعند الفعل في الجملة الثانية، ففى التركيب الأول هناك تشويق أحدثه البدء بالاسم وتقديمه على الفعل، مما أثار الاهتمام وجعل المتلقى منتظرًا ما يرتبط بهذا الاسم من أحكام ومعانٍ.

أما في التركيب الثاني فيقلُّ فيه عنصر التشويق، فإطلاق الفعل وحده لم يُحْدِث الإثارة الذهنية التي أحدثها تقديم الاسم.

الوجه الثاني للظاهرة، وفيها يتقدم الاسم على الفعل في جملة الشرط المسبوقة بجملة الجواب.

ويأتى هذا في خمسة عشر موضعًا.

ويمثل هذا الوجه من الظاهرة هذا البيتُ:

لاَ تَـغْـفُـلَـنْ إِذَا أَمْنِـيَـةٌ عَـرَضَـتْ فَإِنَّمَا العَيْشُ فِي هذَا الوَرَى لَقَطُ[1]

ويتفق وجها الظاهرة في تقدم الاسم على الفعل في جملة الشرط، ومغزى التقدم في كلا الوجهين واحد، ويختلفان في أن هذا الوجه ينفرد بأن جملة الجواب قد تقدمت على جملة الشرط، مما يعنى أن المعنى فيها هو الأهم لدى الشاعر، لذا يقدمها ثم يقيدها بجملة الشرط.

* * * * *

(١) الديوان، جـ٢، ص١٩٩.

النتائج

يكون إجمال النتائج العامة للتقديم والتأخير فيما يلي:

١- قد يتقدم المفعول لأنه أعظم شأنًا من الفاعل، أو لأنه أشمل منه، أو لوقوعه في أسلوب استثناء، أو في أسلوب استفهام. وقد يتقدم المفعول به، لأنه اسم موصول وتقديمه يأتى بغرض المبالغة في الوصف، كما قد يتقدم لأن تأخيره يؤدى إلى حدوث خلل في التركيب. وقد يكون تقديمه ضروريًا لتحقيق التجانس اللفظى بين شطرى البيت والمزواجة بينهما.

أما عند تقديم المفعولين على الفاعل فإن دور الفاعل يقل وأهميته تتضاءل بحيث إن المعنى لا يتأثر بحذفه.

٢- يأتى تقديم الحال للتأكيد على المعنى الذي يبرزه هذا الحال، أما تقديم المفعول لأجله فيعنى التركيز على الحدث.

ويتقدم المفعول به والمفعول لأجله معًا في صدر البيت وعجُزه فيتحقق - إضافة إلى أهمية المقدَّم - التجانس بين الصدر والعجُز.

٣- إن تقديم المفعول به والجار والمجرور معًا يجيء لأهمية أولهما، ولأن تقديم الثانى يؤدى إلى التفصيل والتوضيح. أما إذا عُكس ترتيبهما بحيث يَرِدُ الجار والمجرور أولًا ثم المفعول به ثانيًا فهذا يعنى إفادة التأكيد الذي يحققه الجار والمجرور والتحقير الذي يبرزه المفعول به المقدم. أما تقديم الجار والمجرور وحدهما فقد يُراد به بيان مصدر الحدث، أو الإشارة إلى التحديد المكانى. وقد يتقدم الجار والمجرور في أسلوب القصر فيفيد الاختصاص. ويتعدد الجار والمجرور في السياق بغرض التحديد والتفصيل.

٤- يأتى تقديم التمييز بهدف التركيز على معناه، أما تقديم الظرف فيجيء للتأكيد إمّا على التحديد الزمنى، وإما على التحديد المكاني.

٥- إن تأخير الفاعل ووقوعه مقطعًا للبيت يعنى التركيز على معاني العناصر التي تقدمت والمحافظة على القافية في القصيدة. أما تأخير المفعول به ووقوعه مقطعًا للبيت فيأتى بغرض المحافظة على القافية.

٦- إن تأخير خبر المبتدأ وتأخير مقول القول بصورة لافتة يجعل المتلقى ينسى أن ثمّة خبرًا أو مقولًا للقول عليه انتظارهما، إلا أن هذا يعنى حضور ذهن المرسل وتيقظه، إذ على

الرغم مما اعترض من تراكيب سواء كانت بَيْنَ المبتدأ والخبر أم بين القول ومقوله، فهو يقظ لطبيعة التركيب، وعلى وعى بماهية البنية النحوية للأبيات وإن طالت.

٧- قد يؤدى تقديم المتعلقات وتأخيرها إلى ثقل في التركيب.

٨- إن تقديم الاسم على الفعل في جملة الشرط يعنى أن الاسم المقدّم ذو أهمية خاصة، كما أن البدء بالاسم يحدث نوعًا من التشويق.

* * * * *

obeikandl.com